

المحاضرة الثانية: ارتباط

اللغة بالمجتمع

نصوص من كتاب اللغة

والمجتمع

تأليف: عبد الواحد وافي

## ( ١ ) أثر العوامل الاجتماعية في خصائص اللغة وتطورها

تأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمتها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرتها إلى الحياة ، وشعونها الاجتماعية العامة .. وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب . فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما ، ولز ضوء خصائصها في كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، وورق تفكيرها ، وتمهدت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والانتباس للتعبير عن المسيمات والأفكار الجديدة ... وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما تقول . فقد كان لانتقال العرب من هجبة الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العري الضيق التي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، كان هذين الانتقالين أجمل أثر في نهضة لغتهم ورق أساليبها واتساعها لختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها



في عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر ما وما كانت عليه في الحضرة في نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدي الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأمبر أحسن من قوله :

أنت كالكلب في حفاظك للهمم سد وكالتيس في قراع المحطوب  
قد استطاعت قريحته ، بعد أن هدبتها حضارة بغداد ، أن تجود بمثل قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلين الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها في نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة ( الزراعة ، والصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام ... الخ ) . وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسر عليه الناطقون بها في شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة . وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة ... كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها : في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب ... وعلم جراً<sup>(١)</sup> . وإليك مثلاً درجة القراءة التي تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فإن الأمم التي تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين

(١) من أجل الصوت في هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « فايه » في المجلد الثامن من مجلة « الغربية » سنة ١٩٠٧ من ٤٣٤ : ٤٦٣ ، تحت عنوان « روح الأمة بطابعها متعلمة في لغتها : V. Vannier . L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa langue (Revue Pédagogique 1907. T.2 p.p. 434:463) .

منزلة واحدة تقريبا في درجة قرابتهما للفرد تطلق لغيرها كلمة واحدة على كل من العم والخال oncle, uncle والعمة والخاله tante, aunt وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالّة cousin وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالّة cousine ، على حين أن الأمم التي تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسترين في درجة قرابتهما للفرد تختلف في لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالّة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالّة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالّة (١) ... وإليك مثلا آخر يبلغ اتجاه الأمة إلى مبادئ المساواة أو المحرافة نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر في مختلف نواحي لغتها حتى في ناحية القواعد . فسخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له : ( أرجو أن تفضلوا ... ) ، وإجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب : ( تفضل سيدي ... ) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يلبو في اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك بعد تطور هذه الضمائر في أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها في هذه الشؤون .

فالصراع في اللغة الفرنسية بين "tu" ( أنت ) و "vous" ( أنتم ) ، في سخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات في الشعب الفرنسي . فقد كانت الغلبة للضمير الأول في العصور التي سادت فيها مبادئ المساواة ، وللضمير الثاني في العصور التي وهت فيها هذه المبادئ . ومثل هذا يقال في اللغة العربية . فقد كان العرب في جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد ، ولذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد ، ولم تزد في لغتهم المبالغة في التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى في توجيه الخطاب إلى الله عز وجل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم في الترف ، ومحاكاهم لأبهة الفرس وأساليبهم في الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انصرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع

(١) انظر كتابنا « الأمة والجمع » طبعة السادسة من ٢٧ . ٢٨ .



وأجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « المحضرة »  
والجناب » ... وما إلى ذلك .

واختلاف الطبقات في بعض الأمم ، وما يفصلها من فوارق في مظاهر الحياة  
الاجتماعية والاقتصادية ، كل ذلك يؤدي إلى التمييز بينها في المفردات التي تطلق على  
شعوب كل طبقة منها . وإليك مثلا المفردات التي تطلق على أنواع الدخل والأجور ،  
فإن مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات في أمة ما ليسجل مبلغ الاختلاف بين  
طبقات هذه الأمة في مستوى الحياة ، وإن الأصل اللغوي الذي يرجع إليه كل مفرد  
منها ليشير في صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها وإلى نشاطها  
الاقتصادي ، ومنزلتها في سلم الطبقات . ففي اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص  
على كل من دخل المسكين ، والخدم ، وعامل اليومية ، والعامل الدائم ، والممثل ،  
والصحفي ، والقسيس ، والجندي ، والضابط ، والموظف غير الحكومي ، والموظف  
الحكومي ، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامي والمالك الزراعي ومن إليه ،  
والمساهم في شركة ما ، والنائب البرلماني .. وهلم جرا . وكل مفرد من هذه المفردات  
يشير أصله اللغوي في صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها ، وإلى  
نشاطها الاقتصادي ، ومنزلتها بالقياس لما عداها من الطبقات :

Les secours d'un indigent; les gages d'une domestique; la pay d'un  
Journaliste; le salaire d'un ouvrier; les feux d'un acteur; les mensualités d'un  
Journalier; le cusuete d'un curé; le prêt d'un sodat; le solde d'un officier; les  
appointements d'un employé; le traitement d'un fonctionnaire; les honoraires  
d'un médecin on d'un avocat; les rentes d'un rentier; les dividendes d'un  
actionnaire; l'indemnité d'un parlementaire... etc.

وكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس وفقاهم اختلاف مدلول الكلمات  
وتخرجها عن معانيها الأولى . ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة  
الواحدة من فروق في الخواص النفسية ، وفي شعوب السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ،  
والثروة ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والتقاليد  
والعادات ... وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به من وظائف والآثار  
العبيقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة



إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتشتأثر بقط كبير من اتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعتهم وأعمالهم ... وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى ، وتوجه معانيها في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة مختلفة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

وتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامعها ونظورها إلى الحياة . فاتجاه الانجليزية مثلاً إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصيغة مادية في مفرداتها وتراكيبها ؛ حتى إنه يقال فيها : « دفع زيادة أو تحية أو شكراً أو ابتهاجاً » و « أنفق وقته في كيت وكيت » و « تبيع الساعة أو تخسر » "To pay visit, compliments, attention.." "How can I pay you for all your goods" "He spent his time in.." "The watch gains or loses".

بدلاً من «أدى زيادة» و « قدم تحية أو شكراً » و « أبدى ابتهاجاً » و « قضى وقته في عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم بعض يبعث كذلك صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستحجة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسمي بأسمائها الصريحة ؛ على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون ، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ ، وتستبدل الكتابة بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته .. إلخ . ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « ساؤم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن في المضاجع » ؛ « لاسم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء في الخيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتاسا » .. وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبل الألفاظ .





وما يبدو في اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله في اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجاً في هذه الناحية اللغة الإنجليزية . فالبطن مثلاً لا يعبر عنه في لغة التخاطب الإنجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه في الغالب the stomach ( أى المعدة )<sup>(١)</sup> ، وسراويل الرجل تطلق عليها أحياناً كلمة معناها الأصل « ما لا يمكن التعبير عنه : Inexpressible »<sup>(٢)</sup> ، وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصل « الجمع أو التركيب Combination »<sup>(٣)</sup> .. وهلم جرا .

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها في الإدراك والوجدان والتروع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجها ، وتفسيرها لظواهر الكون وفهمها لما وراء الطبيعة .. كل ذلك وما إليه يبحث كذلك صداة في لغتها<sup>(٤)</sup> . ففى الأمم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعاني الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعمد القواعد أو تكاد تعمود من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة في نواحي الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة وشئون الصناعة اليدوية والأدب السهل والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات ، حتى إنه لا يوجد فيها اسم للاله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة في أذهان أهلها أنفسهم . وفي كثير من الأمم البدائية يتعكس في اللغة من مظاهر الاضطراب والإبهام ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من ساذجة

(١) تحصر هذه الكلمة عادة في اللغة الدارجة فقال Jimmy .

(٢) يطلق عليها غالباً في اللغة الدارجة كلمة Pants وهي اختصار كلمة « بنطلون » .

(٣) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فطلق عليها أحياناً كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs. Bloomer اخترعت طرازاً قصيراً لها ( وكان يخفى على حاكمة وقسيس وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل ) ، وأحياناً كلمة Knickers وهي اختصار كلمة Knickerhoker ( وهذه الكلمة كانت في الأصل اسماً لشعبية روائية أسسها المؤلف طرازاً خاصاً من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد في سراويل السيدات ) .

(٤) V. Vanier Op. cit. (٤)



وقصور ، حتى إنها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى إن أهلها أنفسهم ليضطرون في أثناء حديثهم إلى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكلمة ما يقصص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . فقد روى عن قبائل البوشمان Bochimans ( عشائر بدائية تسكن جنوب أفريقيا ) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يهبطون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامهم فتكلم ناقصه وتوضح مدلولاته<sup>(١)</sup> . ويقرر علماء الانتوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقية أن عقليات هذه الشعوب لا تكاد تدرك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقل كان له صدى كبير في لغاتهم ، فلا تكاد نجد في كثير منها لفظاً يدل على معنى كل . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمر ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم<sup>(٢)</sup> . ول لغة الهرونين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالحز ؛ ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ؛ وثالث في حالة تعلقه بالزبد ؛ ورابع في حالة تعلقه بالموز .. وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما<sup>(٣)</sup> . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmanic (يقرب استراليا ) لا يوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجأوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالعلول<sup>(٤)</sup> .

وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية — الأوربية حيث ينشط التفكير ويعشق الادراك ، ويدق البحث ، وتوجه العقول إلى التأمل الفلسفى ؛ وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الانسانى تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة . ففى مثل هذه الشعوب تكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعاني الكلية ،

(١) انظر بهو : تطور المعان الكلية ص ٧٨ Ribot : L'Evolution des Mées Générales

(٢) Ibid 110 (٣) Ibid. 173-174 (٤) Ibid. 204 et suiv.



والتراكيب المعبّوة عن الحقائق العامة ، وتفترق أزمّة الأفعال<sup>(١)</sup> ، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها ، وتتوَع الروابط وتختلف دلالاتها ؛ فصَح للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

ويتطور مدلول الكلمة في لغة ما تبعاً لتطور الشؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، وينحرف به قليلاً أو كثيراً عن أوضاعه الأولى . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات . فكلمة « القطار » مثلاً كانت تطلق في الأصل على عدد من الأبل على نسق واحد تستخدم في السفر وفي النقل ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصل تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير الآن مدلولها تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل ، فأصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر . وكلمة الريشة Plume كانت تطلق على آلة الكتابة أمام كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصل تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة . وعبارة « بنى الرجل على امرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبني له ولأهله خباء جديداً ؛ ولكنها فقدت الآن معناها الأصل لانقراض هذا النظام ، وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة في بعض المصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ؛ ومن ثم جاءت عبارة Envoyer aux galères ، وجاء وصف garlérien ؛ ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكيفية استخدام الكلمة في مدلول ما ، لحدوث ما يدعو إلى ذلك في شعره

(١) ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان : فعل انتهى زمنه ( ماضٍ ) وفعل لم ينته زمنه ( أمر وصارح الحال أو للاستقبال ) ، هل حين أن له في اللغات الهندية - الأوربية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر رسماً في الجمل الاحيائية وحدها .



الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها — مع تقادم العهد — من مدلولها الأصل ويقصرها على الناحية التي كثر فيها استخدامها .

فكثيراً استخدام العام مثلاً في بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعي ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله . ولدنيا في اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع ، فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والمسجد .. وهلم جرا .

فالصلاة مثلاً معناها في الأصل الدعاء<sup>(١)</sup> ثم شاع استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتغالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى . والحج معناه في الأصل قصد الشيء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقي مقصوراً على هذه الشعيرة .. وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضاً كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الحسب من كل شيء ، ثم قصر مدلولها على الحسب مما يفرش أو يلبس لكثيراً استخدامها في هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهي في الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها في الخمر لدوامها في الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأصبحت لا تنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثيراً استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعي ما يزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك في اللغة العربية كلمات : اليأس والورد والرائد والنجعة .. وهلم جرا . فالْيَأْسُ في الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه في كل شدة فاكسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار إتيان كل شيء ورداً لكثير استخدامه في هذا المعنى العام ؛ والرائد في الأصل طالب الكمال ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛ والنجعة في الأصل

(١) وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .



طلب الغيب ، ثم عممت في الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعا . ومن ذلك في اللغة الفرنسية كلمة salaire فقد كان معناها في الأصل — كما تدل على ذلك بيتها — ما يصرف للجندي من نفوذ في نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها في كل أجرة حتى نسي معناها الأصل ؛ وكلمة arriver فقد كانت تدل في الأصل — كما تشير إلى ذلك بيتها — على الوصول إلى الشاطئ ، ثم شاع استعمالها في كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي لسبب اجتماعي ما يؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي وحلول هذا المعنى المجازي محله . فمن ذلك مثلا في اللغة العربية كلمات الجند والأفن والوغى والغفران والعقبة .. وهلم جرا . فالجند معناه في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازاً في الامتلاء بالكرم حتى انقضى معناه الأصل وأصبح حقيقة في هذا المعنى المجازي ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأمن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأصوات في الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من السر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقبة » من الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة في العبارات المنفية يزرع عنها معناها الأصل ويكسبها معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شيء بأداة من أدوات النفي : فمن ذلك في اللغة العربية كلمات أحد وديار فقط وأبدأ .. وما إليها ، وفي اللغة الفرنسية كلمات pas; rien; personne.. etc.

واستخدام الكلمة في فن ما بمعنى خاص يجردتها في هذا الفن من معناها اللغوي ويقتصرها على مدلولها الاصطلاحي . ويدخل في هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون ... وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل في الشعر بمعنى ، وفي الرسائل بمعنى آخر ، وفي السياسة بمعنى ثالث ، وفي القانون بمعنى رابع ، وفي الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفي الطبيعة بمعنى سادس ، وفي الطب بمعنى سابع ... وهلم جرا .

وللى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئوننا ترجع كذلك أهم الأسباب في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل ، وفي هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاماً . فأهم العوامل التي تدعو إلى نشأة كلمات في اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعي جديد : نظام حديث في الشؤون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية ؛ مخترع مادي جديد .. وهلم جرا . وأهم العوامل التي تؤدي إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحروب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فقد انقرض في العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الإسلام ، كالمرباع والضرورة والتوافج<sup>(١)</sup> . وانقرض في الفرنسية لهذا العامل وما يتصل به كلمات كثيرة منها :

*veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette fiégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard, toise... etc.*<sup>(٢)</sup>



(١) المرباع : ربع الغنمية ، كان ريس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية ؛ والضرورة : هو الذي يدع الشكاح تتلا ، أو الذي يحدث حدثاً ويلجأ إلى الحرم ؛ والتوافج : الأذن تساق في الصدق .  
(٢) Dauzat, Philosophie du Langage, p. 228 et suiv.

